صفوة الفقراء

محمد تامر

صَفْوَةُ الفُقَرَاءِ

محمد تامر

تصنيف العمل:نوفيلا

المؤلف \ ة:محمد تامر

تصميم الغلاف:كوكي انور

الاخراج الفني:منى وجيه

دار احبة الضاد للنشر الالكتروني

رئيس مجلس الإدارة :

سلمى جمال

هدير إبراهيم

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله

لله الشـــكر والحمـــد والفضـــل علـــى ســـائر نعمـــه عمومـــاً، وعلـــى نعمـــة إلهامـــه لـــي بإتمـــام هـــذا العمـــل الأدبي خصوصاً،

وهو الموفق والمستعان

اللهـــم انصـــر إخواننـــا فـــي فلســـطين، وثبـــت أقـــدامهم وانصرهم على أعدائهم وخاذليهم. اللهم آمين.

إهداء

إلـــى زوجتـــي المســـتقبلية التـــي لا أدري مـــا إذا كـــان الله قـــد أَذِنَ بِقُـــربِ لقـــائي بهـــا بعـــد أم لا، لكـــن عليهـــا أن تعلـــم فقـــط أننـــي أحبهـــا، وأننـــي أدعـــو الله دائمـــاً أن يكـــون هـــذا اللقـــاء أقـــرب ممـــا أتخيـــل حتـــى، وأننـــي منـــذ ســـنوات عـــدة كنـــت ومـــا زلـــت أبحـــث عنهـــا، وفـــي ذلـــك مســـتمرٌّ إلـــى أن يخمـــد لهيـــب الشـــوق فأجـــدها، وأهـــدي كـــل كتابـــاتي المســـتقبلية إليها باسمها وبصفاتها.

لا أدري كيـــف يمكـــن للمـــرء أن يصـــدق أن حبـــاً عـــابراً للأبعـــاد كهـــذا موجـــود، لكننـــي أؤمـــن بوجـــوده لأننـــي أعيشـــه، حـــب عجيـــب يتجـــاوز حـــدود المنطـــق والـــزمن لشـــخص لا تعلـــم متـــى تـــراه ولكنـــك مـــوقن أنـــك ســـتراه، حـــب مـــن وراء جـــدران المنطـــق والعقلانيـــة، وتجربـــة ميتافيزيقيـــة شـــاعرية لا تقبـــل عذوبتها وصفاً!

يـداكِ علـى قلبـي تطمئنـه وتهـدئ مـن روعـه دائمـاً، تجعلينـي سـعيدة حتـى وأنـتِ غيـر موجـودة، بـنفس القـدر الـذي أعلـم أنـك سـتحققينه لـي عنـدما تصبحين موجودة في واقعي أنا !

إلـى نيـران هـذا العشـق العجيـب الـذي ألهـب قلبـي ووجـداني لسـنوات طـوال ومـا زال يفعـل، أهـدي هـذه القصـة، وهـذه المشـاعر والأحـلام المسـتترة بصفحاتها وتعبيراتها وكلماتها!

** ** **

تنويه

هـــذه القصـــة ذات طـــابع رمـــزي وفلســـفي؛ أي أنـــه لـــيس عليـــك أن تبـــدأ القـــراءة متوقعـــاً أن تجـــد أحـــداثاً شـــيقة أو منعطفـــات ســـردية غيـــر متوقعـــة أو تطـــورات شخصـــية مميـــزة أو أيـــاً كـــان، أنـــت تقـــرأ مجموعـــة مـــن التـــأملات والملاحظـــات والأحـــلام والمشـــاعر والأفكـــار الشخصـــية الخاصـــة بـــي، والتـــي قـــررت أن أقـــدمها بأســـلوب ســـردي فـــي عـــالم المدينـــة الـــذي صـــنعته مـــن وحـــي خيـــالي - رغـــم أنـــه لـــيس خياليـــاً إلـــى حـــد كبيـــر كمـــا ســـتلاحظ - والـــذي يقطـــن بـــه الأغنيـــاء والفقـــراء، والـــذي لا يـــرى المقبلون عليه منه سوى الأكاذيب والأضواء!

أذكـــركم أيضـــاً أن القصـــة خياليـــة بالكامـــل نتيجـــة اعتمادهـــا التـــام علـــى الرمزيـــات؛ القصـــة كُتِبَـــت بشـــكل شـــاعريٍّ رمـــزيٍّ كتفريـــغ لعـــدة أفكـــار وملاحظـــات وأمنيـــات وهـــذا مـــا يجعـــل المنطـــق لا

يليق بها، هذا التنويه هام لئلا تفقد متعتك أثناء القراءة وأرجو أن يظل حاضراً في عقلك طوال رحلتك الصغيرة مع صفحات هذه القصة كي تكون متفهماً لوجهة نظري، ووجهة نظر القصة نفسها.

** ** **

(1)

كان منظر المدينةِ يَسُرُّ الناظر إليه كما المعتاد؛ وكيف لا يُسَرُّ إثر رؤيته مَبَانٍ ضخمة وشاهقة الارتفاع ومنازل راقية التصميم والمعمار كتلك التي تَذخرُ بها مدينتنا، أو إثر رؤيته لتلك المتاجر والمحلات الكبيرة ذات السلع الغالية والنفيسة، وكل تلك الوجوه التي تزورها لتنفق ما معها ببذخ على سلعها أو تسير في الشوارع بأبهى زينتها في كل وقت وحين، كيف لا يسر وقد كانت المدينة تبدو كَجَنَّةٍ حديثة الطراز بلا مبالغة؟ !

سأخبرك بالسر الذي يجعله لا يُسَر: أن تُرِيَهُ شاذاً عن القاعدة؛ فإذا كانت المدينة تلمع وتبرق بثرائها وحضارتها قبل ألوانها وأضوائها، دعنا الآن نُرِهِ فقرائها!

أَرَأَيـــت؟! لقـــد اشـــمأز وانصـــرف، وهـــذه مـــن بديهيات الدنيا !

ولكـــن....إذا قَصَصـــتُ عليـــك قصـــة بعـــضٍ مـــن أولئـــك الفقـــراء، أَيَـــرِقُّ قلبـــك لحـــالهم وتكـــون أنـــت شـــاذاً عـــن تلـــك البديهيـــة الدنيويـــة الســـيئة؟ حســـناً، علـــى الأقـــل دعنـــا نجـــرب ونجـــري اختبـــاراً بســـيطاً لإنســـانيتك وشـــفقتك، أَعِرنِـــي سَـــمعَك ودعنـــا نبـــدأ قصتنا ببعض التفاصيل عن بطلها الأول.

كـــان صـــاحبنا شـــاباً بعمـــر الثلاثـــين، ذا شـــعرٍ كثيـــفٍ نـــاعمٍ بنـــي اللـــون، ووجـــهٍ طويـــل وعينـــين ســـوداوين بلـــون حياتـــه، وجســـدٍ نحيـــل نتيجـــة قلـــة الغـــذاء وكثـــرة الترحـــال؛ فهـــو لـــم يلجـــأ طـــوال حياتـــه البائســـة إلـــى الشـــحاذة كـــي يجـــد مـــا يســـد رمقـــه، وإنمـــا كـــان دائمـــاً يحـــاول أن يجـــد عمـــلاً مـــع أي شـــخص يقبـــل أناســـاً مثلـــه؛ فتَـــارَةً تجـــده يعمـــل مـــع حـــداد، وتـــارة أخـــرى تجـــده يعمـــل مـــع بَنَّـــاء، والآن

هو يعمل مع بائع طعام جائل حالته المادية تحت المتوسطة بقليل، لكنه رجل كريم وصالح وأَحَبَّ صاحبنا كثيراً ورحب به ليعمل معه، وكان يقاسمه الطعام والأموال القليلة دائماً؛ فظل صاحبنا معه لما يقارب العَامَين.

عرض الرجل على صاحبنا عدة مرات أن يبيت معه في منزله، لكنه دائماً ما كان يأبى أن يفعل؛ فعرض عليه أن ينام ولو حتى في القبو لكنه أيضاً رفض، وأَصَرَّ دائماً على افتراش الشارع والنوم فيه؛ فكان ينام قريباً من منزل الرجل كل ليلة إلى أن يأتي الصباح فيخرج الرجل بعربته ويجول في الشوارع ويتبعه صاحبنا من على بعد، فلا يقتربان من بعضهما إلا قليلاً حتى لا يشمئز أحد من وجود صاحبنا فيرفض الشراء من الرجل!

ولا حاجة لذكر المزيد من التفاصيل عن حياة صاحبنا مع ذلك الرجل؛ فأنا أعلم أنك مللت الآن قبل أن أبدأ الحكاية حتى، وعلى العموم لم يكن هذا سوى مجرد تمهيد للقصة وليس بداية حقيقية لها، أما عن بدايتها الحقيقية فقد كانت بموت بائع الطعام هذا في أحد الأيام وتركه لصاحبنا وحيداً مجدداً كما كان وكما يبدو أنه قُدِّرَ له أن يكون!

كما ذكرت لك في السابق؛ صاحبنا هذا كان عزيز النفس لدرجة تجعله يخجل من تجربة الشحاذة؛ ولذا فقد حزن حزناً عميقاً على موت هذا العجوز الذي كان وحيداً مثله أيضاً ولم يحب أبداً أن يطلب الشفقة والمدد من أحد، وإنما رغب فقط في أن يستحق المال وليس أن يكسبه، كان صاحبنا كثيراً ما يشعر بأن ذلك العجوز هو نسخة كبيرة في السن منه نوعاً ما،

وهـذا أيضـاً ممـا عـزز علاقتهمـا عنـدما كـان الرجـل لا يزال حياً.

مـا حـدث بعـد ذلـك هـو أن صـاحبنا عـاد إلـى ترحالـه القـديم، والـذي كـان حـالاً ثابتـاً ومميـزاً لـه منـذ مـا يقـارب العـامين؛ بحثـاً عـن عمـل جديـد لا يهـتم مـا إذا كـان أصـعب أو أهـون مـن سـابقه، المهـم ألا يبيت جائعاً بشكل لا يجرح كرامته وعزة نفسه.

لكنـه للأسـف لـم يجـد عمـلاً بسـهولة هـذه المـرة، وشـعر بأنـه سـيموت جوعـاً قبـل أن يسـتكمل البحـث؛ ولـذا فقـد قـرر أن يـدفن عـزة نفسـه وكبريائـه مؤقتـاً تحـت تـراب الجـوع، وجـرب أن يتسـول بعـض الطعـام والنقـود خـلال ترحالـه، والله وحـده يعلـم كـم كـان هـذا الفعـل جارحـاً لنفسـه وكرامتهـا، ولكـن كـان عليـه فـي تلـك اللحظـة أن يختـار مـا بـين التـأقلم مـع هـذه الجـراح لـبعض الوقت وبين الموت جوعاً!

لـــم يكـــن اختيـــاره غيـــر متوقـــع بـــالطبع؛ فقـــد جـــرب الشـــحاذة بالفعـــل وحصـــل منهـــا علـــى بعـــض النقـــود التـــي أُلقِيَـــت إليـــه بنظـــرات احتقـــار كانـــت كفيلـــة بقتلـــه بشـــكل أســـوأ مـــن الجـــوع، واســـتمر علـــى هـــذا الحـــال لبضـــعة أيـــام يمكـــن أن نعـــدها علـــى أصـــابع الكف.

وفـــي هـــذه الأوقـــات العصـــيبة وتلـــك اللحظـــات الأليمة....رآها!

****

(2)

رأى نجماً لامعاً وسط غُبَارِ الفضاءِ

وقمراً منيراً يَبرُزُ من ظُلُماتِ السماءِ!

رأى الحُسنَ والجمالَ، والبراءةَ والصفاءَ

في وجهٍ يَبرُقُ كما الشمس التي تُزَيِّنُ البيداءَ!

نعم، بالتأكيد كانت أنثى!

كانت جالسة على الأرض مرتديةً ملابس رثة كتلك التي يرتديها، وكان جسدها هزيلاً أكثر من جسده حتى، لكن أكثر ما جذبه وجعله يمعن النظر إليها هو وجهها المستدير الصغير، وعيناها العسليتان الضيقتان، وملامحها الطفولية البريئة التي تتعارض بشكل صارم مع حالة جسدها وظلال سوداء بارزة تحت عينيها، وشعرها القصير ذو اللون البني القاتم، كانت جميلة جداً بالنسبة إلى كونها متسولة كما

يـــوحي كـــيس النقـــود الصـــغير الملقـــى بجانبهـــا، وهذا هو ما ظل يخبر صاحبنا نفسه به متعجباً !

لقــد رأى فــي ترحالــه نســاء جمــيلات كثيــرات ولــم يأبــه لهــن بالتأكيــد، ومــا كــان ليعتبــر نفســه جــديراً بــأن يفعــل أصــلاً، لكــن هــذه حالــة غريبــة جــداً لا يراهــا المــرء كــل يــوم حســب ظنــه؛ فقــد كانــت هــذه المــرة الأولــى التــي يــرى فيهــا فتــاة بهــذا الجمــال تشــحذ فتــات الطعــام وقطــع النقــود القليلــة، هــو لا يأبــه بحالــه علــى الإطــلاق فهــو يعلــم أن هنالــك مثلــه كثيــر مــن النــاس، لكــن....لا يــرى المــرء كــل يــوم فتــاة عذبــة الملامــح والجمــال تجلــس بهــذه الحال!

اقتــرب منهــا صــاحبنا وقــد بــدا علــى وجهــه العجــب، وسألها وهو يزدرد لعابه:

-ما اسمكِ؟

فسألته بدورها بلهجة باردة حذرة:

-ماذا تريد؟!

-الحقيقة أنني أعجب لحالك وحسب...أنتِ أجمل من أن يكون حالك هكذا!

عقدت حاجبيها، وشعر صاحبنا أنه أخطأ فيما قاله فَهَمَّ بالاعتذار مبدياً أسفه على ما قال، لكنها أشارت إليه أن يجلس بجانبها قبل أن يفتح فاه حتى لينطق بكلمات الأسف!

وقد استجاب لها فجلس بجانبها، ولم يتحدث أي منهما لبعض الوقت، وخَيَّمَ عليهما صمت ذو رهبة جعلتهما لا يقدران على كسره، إلى أن قُطِعَ فجأة بقولها:

أتستنكر علي أنني جميلة؟! أترى أن الجمال أيضاً ليس من حقي؟!

عقد حاجبيه وقال بلهجة آسفة:

-لا أقصد ذلك أبداً، إن حالي مثلكِ كما ترين ولذا فأنا لا أستنكر عليكِ شيئاً أبداً، أعرف في قرارة نفسي أننا نستحق أن نحيا مثلما يحيا أولئك الناس ولكن...أحياناً أشعر فقط...بأن هذا لا يليق بنا!

سالت دمعة على خدها وهي ترد:

-ربما لا يليق بنا أن نحيا أصلاً!

-كلا....لا تقولي هذا، أعلم أننا لم نأخذ فرصتنا في الحياة كبشر...طبيعيين، ولكن لا يجب أن يجعلنا هذا نكره أنفسنا لهذه الدرجة!

-أياً كان ما تقوله!

-هل فكرتِ يوماً أن حالنا هذا يجعلنا مميزين بشكل ما؟!

-مميزين؟! لا أدري ما هو مفهومك عن التميز ولكن يبدو بأنك تظن أنه جيد بشكل مطلق؛ ماذا

لـــو أن كوننـــا هكـــذا يجعلنـــا مختلفـــين بالفعـــل ولكـــن بشكل أسوأ من غيرنا؟ !

-أفهـــم مـــا تقـــولين ولكن...الأمـــر أننـــي أحـــاول دائمـــاً أن أرى جانبـــاً جيـــداً فـــي كـــل مـــا يحـــدث؛ ربمـــا رُحِمنـــا مـــن أوجـــاع المشـــاعر والعلاقـــات بـــين النـــاس، ومـــن الجـــوع والألـــم، ونعم...الجـــوع والألـــم وجودهمـــا بشـــكل معتـــاد يقضـــي علـــى قيمتهمـــا وســـلبيتهما...إنني أســـمع أحاديـــث وحكايـــات أثنـــاء تجـــوالي تجعلنـــي أحيانـــاً ســـعيداً بحـــالي، لا أظـــن أن هنالـــك مـــن جـــرب كـــل الســـعادة فـــي الـــدنيا أو كـــل الألم فيها، ولا حتى نحن!

-تقول بأن حالنا أسعد من غيرنا؟ !

-نعم، على الأقل نحيا أحراراً!

-فـــي زمـــان ومكـــان آخـــرين كـــان يمكـــن لكلماتـــك تلـــك أن تكون منطقية أكثر!

-وماذا لو أنها...

-دعك من كل هذا، إننا نتحدث ونحن لا نعلم أسماء بعضنا حتى ولا نعلم ما إذا كنا سنرى بعضنا مجدداً أم لا، وأنت هنا...تعظني! وهذا حقاً يثير السخرية!

-لا بأس...

-فقط اصمت، أيمكنك ذلك؟!

قالت جملتها الأخيرة وقد زادت دموعها، وبدأ صوت بكائها يعلو أكثر؛ فالتزم صاحبنا الصمت لبعض الوقت منتظراً إياها أن تقطعه بكلامها مجدداً، إلى أن حدث بالفعل وتكلمت:

-اسمي هبة، ولم أشعر في حياتي بمعنى اسمي...وأنت؟

-اسمي عزيز، لكني شعرت في حياتي بمعنى الاسم!

-هه! وكيف لك ذلك؟!

-أقصد هنا عزة النفس؛ فأنا لا أتسول النقود حقاً وليس في هذا إهانة لك بالطبع، لكن الأمر أنني أحب أن أعمل لأستحق المال أو الطعام.

-إذن فأنت تعمل، وماذا تعمل يا ترى؟

-في الحقيقة لا أعمل حالياً؛ فقد مات رب عملي الأخير؛ ولذا فأنا أجول في المدينة بحثاً عن عمل آخر.

-وإذا غلبك الجوع، هل ستتسول قوت ليلتك؟!

-في الواقع لقد حدث هذا منذ بعض الوقت، لكن لم أتسول إلا بالقدر الذي يكفيني وحسب.

-إذن فأنت الآن ذاهب في طريقك لمتابعة البحث عن عمل ما؟

-نعم، ولكن لا مانع من أن أستأنس بأحد مثلك لبعض الوقت، هذا لو أنكِ لا ترين مانعاً كذلك!

-كـــلا، لا أرى مانعـــاً؛ فالوحـــدة أليمـــة، ومـــن الجيـــد أن يســـتأنس أمثالنـــا بأشـــخاص مـــثلهم إذا التقـــوا بهـــم، وبمـــا أنـــك التقيـــت بـــي فـــلا بـــأس، اســـتأنس كمـــا تريد ثم امضِ لحال سبيلك إن أردت.

أومـــأ عزيـــز برأســـه موافقـــاً، ثـــم عـــاد الصـــمت ليغـــزو جلســـتهما، وفجـــأة جـــاء رجـــل ووضـــع بعـــض النقـــود أمامهمـــا وتركهمـــا ورحـــل، وقـــد بـــدت عليـــه شـــفقة حقيقيـــة علـــى حالهمـــا، وكأنـــه عـــرف حكايتهمـــا مـــن نظراتهما!

قـــال عزيـــز وهـــو يقـــبض علـــى كميـــة كبيـــرة مـــن النقود التي جمعها:

-لدي بعض النقود هنا، إذا كنتِ تحتاجين...

قاطعتـــه: كلا....لقـــد كنـــت أعمـــل منـــذ بعـــض الوقـــت مثلـــك، وحـــدثت بعـــض الظـــروف الســـيئة و...هآنـــذا هنا!

-يبـــدو أن القصـــة نفســـها وجـــدت طـــريقين مختلفـــين إلينا !

-سأعترف لك بأن هذه مصادفة مرحة نوعاً ما!

-نعم، هي كذلك بالفعل!

وهكـــذا، عـــاد الصـــمت ليخـــيم علـــى الأجـــواء، لكـــن عزيزاً قطعه هذه المرة:

-يبـــدو أنـــكِ حقـــاً لا تريـــدين الحـــديث، وربمـــا لا تطيقين وجودي هنا أصلاً....

قاطعتـــه: لا أريـــد أن أنظـــر إلـــى الماضـــي أبـــداً ثانيةً!

-وســـأحترم ذلـــك، وربمـــا ســـألتزم بـــه أيضـــاً، لـــن نتحـــدث عـــن الماضـــي قـــدر مـــا نســـتطيع وأعـــدكِ بذلك!

-لقـد كنـت تقـول إنـك فـي طريقـك للبحـث عـن عمـل، أليس كذلك؟

-نعم، إنما أجلس الآن معكِ لأرتاح من تجوالي وحسب...

-دعنا نبحث معاً !

انفرجت أسارير عزيز واتسعت ابتسامته أكثر، وظهرت بهجته وهو يسألها قائلاً:

-أتعنين ما تقولين؟!

-نعم، والآن هيا قبل أن أغير رأيي، لقد جلسنا بما فيه الكفاية وحان وقت التحرك قبل أن نموت جوعى، دعنا نبحث عن عمل أو نبتاع طعاماً بنقودنا!

قاما من مجلسهما، وشرعا يتجولان في المدينة معاً، ولكن الفارق هذه المرة بأن خطواتهما كانت أكثر سرعة ومتعة، ولأول مرة منذ وقت طويل جداً يشعر كل منهما أنه ليس وحيداً في هذا الكون، ويتمنى في قرارة نفسه أن يدوم

هــذا الشــعور لوقــت أطــول وأطــول، وأن يظــل مــع الآخــر لمزيــد مــن الوقــت بــأي ســبيل، حتــى لــو لــم يُظهِر ذلك للآخر!

****

(3)

خلال تجوالهما سمعا فجأة أنغاماً موسيقية تأتي من مكان قريب؛ فقادهما الفضول والإعجاب بجمال النغمات إلى مكان تواجدها، وهناك رأيا ثالثاً مثلهما يجلس على الأرض بحالٍ لا يختلف عن حالهما كثيراً، اللهم إلا في كون هذا الثالث يمسك بجيتار خشبي قديم ويعزف ألحاناً عذبة عليه، وفي مقابل عزفه الحسن يلقي إليه من استمتعوا بألحانه نقوداً، ويا لها من طريقة رائعة لجني المال، ربما يكون الأمر في حد ذاته عملاً من نوع ما، وأمراً شاعرياً وجذاباً في الوقت ذاته!

اقتربا منه عندما انفض جمع المستمعين من حوله وقد أملا أن يجدا عملاً معه، كانت أمارات الخمسينات من العمر بادية عليه رغم ملامحه

الوسيمة المرحة، نظر إليهما وفطن إلى أن حالهما كحاله فقال ضاحكاً:

-رائع! صحبة من نفس المجال!

رد عزيز: نعم، لكن الفارق أن لديك عملاً جيداً هنا على ما يبدو!

-حسناً، أعجبتني قوة ملاحظتك ولكني أرجو ألا تكون هنا لكي تحسدني!

-على الإطلاق! الحقيقة أننا...أعجبنا بألحانك و...نود أن نستمع نحن إليك، دون نقود إن كنت تسمح!

-أنتَ كاذب ماهر يا رجل!

-نعم ولا، الحقيقة أننا نبحث عن عمل، وأعجبنا حقاً بألحانك أثناء تجوالنا....

-ورأيتما ما أجني من مال ففكرتما في العمل معي!

-نعم، لا أكذب عليك، الأمر مفضوح أصلاً!

-ولا أدري سبباً يجعلك تخفي هذا، لكن الحقيقة أن الأمر سيكون جيداً بالنسبة إلي وربما حتى ممتعاً أيضاً و....جديداً! إن أحوالنا متشابهة كما يبدو، ولا مانع من أن نعمل معاً وأن أعرف وجوهاً جديدة وسط هذه الوحدة القاتلة التي أحياها لسنوات؛ ولذا فإنني حقاً ليست لدي أية مشكلة، اجلسا ودعونا نتحدث سوياً لبعض الوقت.

جلسا بالفعل بجانبه فسألهما عن اسميهما فأجاباه؛ فرد بدوره:

-وأنا وحيد!

رد عزيز: أجل، كلنا كذلك!

-كلا يا رجل، أنا اسمي وحيد !

-أوه...وبـــالطبع جعلتـــك الـــدنيا تعـــرف معنـــى اســـمك، أليس كذلك؟!

-نعـــم، لليـــالٍ طوال....أطـــول مـــن أن أشـــعر بهـــا حتى!

-لا بـــأس الآن؛ فقـــد أصـــبح لـــديك رفـــاق جـــدد، أو هذا ما أرجوه!

-رجاؤك هو رجائي يا عزيز!

****

(4)

سألهما وحيد عن نفسيهما، فتحدث كل منهما بكلمات قليلة عن نفسه مع التحفظ على ماضيه؛ فابتسم قائلاً وقد لفت ذلك انتباهه:

-أرى أنكما لا تحبان النظر خلفكما!

أجابته هبة: أجل، لا فائدة من ذلك سوى أنه يجلب للمرء مزيداً من الألم ليس إلا؛ فلو أن الماضي كان حزيناً سيحزنك، ولو أنه كان سعيداً فسيحزنك الفارق الشاسع بينه وبين ما تحياه الآن؛ وهذا ما يجعلني أفضل ألا آتي على ذكره أبداً!

-إن تفكيرك هذا يعجبني حقاً أيتها الشابة، واحتراماً له سأتفق معه، أما عني فيكفيكما فقط أن تعرفا أنني أحب الموسيقى كما يبدو لكما، ولكن الأمر أن هذا الجيتار العتيق هو الذي

استطعت أن أبتاعه بما كان لدي، ومنذ اشتريته وهو مصدر رزقي الوحيد؛ سكان المدينة يميلون لامتلاك الذوق الموسيقي و...كل تلك الأمور التي تظهرهم بشكل متحضر كما تعلمان!

رد عزيز: أجل، يتحضرون بينما نتعفن نحن هنا!

-أوه، ولكنني أفضل أن أتعفن وأنا بهذه الحال يا صديقي؛ فالمدينة أصبحت منافقة جداً في نظري بعد أن كشفت عن وجهها الحقيقي، دائماً ما أظن أن كوننا بعيدين عنهم هو فرصتنا لنظل أنقياء!

قالت هبة: رغم أنني أشاركك القناعة ذاتها تقريباً، إلا أنني أشعر أحياناً أن هذا النقاء لن يفيدنا بشيء إذا بدأنا حقاً نشعر بالجوع!

-أتعلمين؟ إنني أؤمن أن هذه الحياة ليست لنا، وعن نفسي فأنا أحيا منتظراً فرصة حقيقية

لأمـــوت؛ مـــا كنـــت لأجـــرؤ علـــى قتـــل نفســـي بـــالطبع ولهـــذا أنتظـــر! إنهـــا النهايـــة الوحيـــدة الحقيقيـــة والشـــريفة لهـــذه المعانـــاة ولـــيس مـــن المفتـــرض أن تكـــون ســـعيدةً علـــى الإطـــلاق، المهـــم أنـــك لـــن تكـــوني موجـــودة لتشـــعري بهـــا، ولـــن يكـــون هنالـــك أحـــد آخر يشعر بها!

عاد عزيز ليتحدث:

-لا أظننـــــي أســـــتطيع أن أجادلـــــك...ليس هنالـــــك للأســـف خطـــأ واحـــد فـــي كلامـــك! الأمـــر فقـــط أنني...أتســـاءل أحيانـــاً لِـــمَ نحـــن؟! لِـــمَ كـــل هـــذا؟! كـــل مـــا فـــي الـــدنيا يجعـــل أســـئلتك تـــزداد وتـــزداد لـــيس إلا!

-ربمـــا نحـــن مختـــارون يـــا رجـــل! ربمـــا هـــذه هـــي مهمتنا؛ أن نكشف المدينة على حقيقتها !

-لصالح من؟ !

-لصالحنا في المقام الأول بكل تأكيد! إنك تحيا دون حاجتك إلى المدينة لأنك تشمئز من أن تشعر بأنك محتاج إليها، إننا الآن يا صديقي نتمتع بأقصى درجات الحرية، وهو أمر لن يستطيع أهل المدينة أن يدركوه ولو بعد ألف عام! أنا لا أقول أن حياتنا نعيم...أقول فقط بأن قلوبنا ونفوسنا في نعيم حتى لو على حساب أبداننا!

-لكن روحي تتألم!

-هذا لأنك تخشى الموت، بمجرد أن تبدأ بانتظاره سيزول الألم!

-لا أظنني سأكون قادراً على فعل ذلك قبل مرور وقت طويل !

-ولا بأس إذن، دع الوقت يمر ويعلمك دروسه، ودعنا الآن ننشغل بما بين أيدينا طالما أننا لا زلنا أحياء...انظرا يا رفيقَيّ إلى هذا الجيتار إذ

أننـــــي ســـــأعلمكما الآن كيـــف تســـتخدمانه كـــي نتناوب العمل به!

****

(5)

مـرت الأيـام علـى ثلاثتنـا أفضـل ممـا سـبق بالنسـبة لكـل مـنهم؛ فقـد آمنـوا جميعـاً بـأن الصـعاب تهـون ولـو بقـدر بسـيط إذا تواجـدت رفقـة تعينـك علـى احتمالهـا، فمـا بالـك لـو أن الرفقـة بهـا أشـخاص يجمعهـم نفـس الحـال، نفـس الألـم والخـوف المتخفيـين تحـت سـتار التعـود والكتمـان، غالبـاً مـا تصـبح الأمـور أفضـل عنـدما تسـتطيع أن تفـرغ ولـو جـزءاً بسـيطاً مـن همومـك ليحملـه عنـك شخص ما، أليس كذلك؟

بـدأ وحيـد يعلمهمـا العـزف، كـان عزفـه شـبه مثـالي حقـاً حتـى لـيظن المسـتمع إليـه أنـه كـان عضـواً فـي فرقـة موسـيقية يومـاً مـا؛ ويبـدو أن هـذا كـان السـبب الـذي جعـل المسـتمعين إليـه فـي الشـوارع يتوقفـون بالفعـل ليعطـوه نقـوداً، وقـد حـاول بطلانـا أن يحسـنا العـزف ظنـاً منهمـا أنـه كلمـا كـان العـزف

أفضل ألقى الناس إليهم بمزيد من النقود، لكن وحيداً عندما لاحظ ذلك قال لهما: يا رفيقَيّ، لا تعزفا حباً في النقود، أحبا الموسيقى نفسها، قُصَّا قصتيكما بها!

عملا بالفعل بنصيحته، ومع الوقت وجدا نفسيهما لا يأبهان كثيراً بالمال أو الطعام؛ فقد شغلت الموسيقى بالفعل جزءاً أكبر من روحيهما كما وحيد، وتغلغلت بداخلهما لتعرف كل حكاياتهما وأسرارهما وتفضحها بالألحان، وقد كان ذلك يثلج صدريهما نوعاً ما إذ أنهما وجدا في الموسيقى فرصة لتفريغ الأحمال النفسية والروحية الشاقة التي بداخلهما.

وقد نتج عن كل ذلك تطور في عزف ثلاثتهم وكذلك علاقتهم، وأيضاً نقود أكثر أُلقِيَت إليهم، وقد كان وحيد يجمع كل النقود في ليلة ما من الأسبوع ويذهب وحده ليجلب طعاماً للجميع،

ويعود إلى بطلينا حيث ينتظرانه في منزل صغير تابع لأحد أجداده كما ذكر لهما دون تفاصيل منذ اليوم الأول لهم سوياً؛ فيأكلون ويتسامرون وينامون، وفي الصباح يتدربون ويخرجون لكسب رزقهم ثم يعودون.

وقد مرت أيام كثيرة عليهم بهذه الحال، شعروا خلالها بأن جراح أرواحهم قد بدأت تُضَمَّدُ بعض الشيء، وتمتعوا لبعض الوقت بنعمتين عظيمتين؛ الصُحبَة والاستقرار.

والنعمة الأهم من ذلك؛ أن تنام وروحك لا تؤلمك !

وخلال تلك الأيام كانت الأحاديث قد كثرت بين بطلينا، رغم أنها لم تكن أبداً عن ماضيهما؛ إذا أن عزيزاً حاول مرة أن يعرف من هبة أصولها وحكايتها فصدته قائلة:

- لا أود أن أعـــــرف حكايتـــــك ولا أود أن أحكـــــي حكايتي، أود أن نظل رفيقين دون حكايات!

ولكــن رغــم ذلــك فــإن كثــرة هــذه الأحاديــث جعلــت كــلاً منهمــا يتشــوق دائمــاً لخــوض أي حــديث مــع الآخــر، وقــد تطــور هــذا الشــغف بينهمــا ذات صــباح كــان وحيــد فيــه لا يــزال نائمــاً، وكــان بطلانــا مســتيقظين يتــدربان، فتوقــف عزيــز عــن العــزف فجأة وقال لهبة وهو ينظر إلى وجهها:

-عينــاكِ جميلتــان جــداً، اعــذريني علــى مــا أقــول ولكن...يبــدو أننــي لــم ألحــظ هــذا حقــاً منــذ عرفتــك سوى الآن!

احمرت وجنتاها خجلاً، وردت:

-أنــت أيضاً...وســيم...نوعاً مــا، فــي زمــان ومكــان آخــرين لربمــا كــان مــن المفتــرض أن تثيــر إعجــاب بعض الفتيات!

-أحقاً ترين ذلك؟!

-نعم، ربما ليس فقط بسبب الملامح والقسمات، ربما لأنني منذ أن وجدتني في الشارع وعرضت علي أن تمنحني بعضاً من نقودك شعرت بأنك...رجل صالح حقاً، وأتعلم ماذا لاحظت أيضاً في ذلك الموقف وأكد لي هذا الظن؟

-ماذا يا ترى؟

-أنك لم ترد أن تعطيني بعض النقود وحسب؛ بل إني رأيتك تقبض على كمية كبيرة من نقودك تكاد تتجاوز نصف ما جمعته وكنت مستعداً لتقدمها لي وأنت لم ترني قبلاً ولا تعرفني، والأدهى من ذلك أيضاً أنك جلست تحادثني وتحاول نصحي بطريقة ما، سأصارحك الآن بأنني رأيتك قوياً وصلباً منذ حديثنا الأول هذا؛ شعرت حقاً من كلماتك بأنك تسخر من الألم، وأنك أقوى من المأساة نفسها وليس العكس،

أنـــت لســت مثلـــي يـــا عزيـــز، أنـــت حقـــاً عزيـــز وقـــوي أيضاً!

-أنـــا حقـــاً لا أدري مـــا أقـــول، وإننـــي لأشـــعر الآن بخجـــل عـــارم إذ أننـــي لا أرى أبـــداً أنـــي أســـتحق كـــل هذا الثناء...

-بالطبع لا تستحقه يا عزيز!

-هه، نعم، أدرك ذلك!

-بل تستحق أكثر منه بكثير!

-الآن أنتِ تبالغين!

قطـــع حـــديثهما اســـتيقاظ وحيـــد المفـــاجئ ودخولـــه عليهمـــا، وقـــد تمنـــى لهمـــا الخيـــر فـــي صـــباحهما وبادلاه ذلك، ثم قال:

-أرى أنكمـــا أصـــبحتما تفهمـــان الأمـــر أكثـــر مـــن ذي قبـــل! يـــا رفيقـــي، هـــذا الجيتـــار هـــو لكمـــا كمـــا هـــو لـــي،

وهـــو شـــاهد وحيـــد علـــى حكايتنـــا نحـــن الثلاثـــة سوياً، إنه من الآن ملك فعلي لكما كما هو لي!

شـــكراه، ثـــم شـــرع ثلاثـــتهم يجهـــزون إفطـــارهم البســـيط ويتناولونـــه ســـوياً، ويتجـــاذبون أطـــراف الحـــديث حـــول مســـتواهم فـــي العـــزف، ومســـتقبل هـــذا العمـــل، وأمـــاكن ووســـائل أخـــرى لإيجـــاد الطعـــام، وغيـــر ذلـــك مـــن المواضـــيع التـــي يمكنـــك أن تتخيل أنهم قد يتحدثون عنها!

****

(6)

لا تـــأتي الريـــاح دائمـــاً بمـــا تشـــتهي الســـفن، ألـــيس كذلك؟

بالطبع لا تفعل...فقد مات وحيد!

كـــان ذلـــك فـــي صـــباح أحـــد الأيـــام إذ أن بطلينـــا اســـتيقظا ولـــم يجـــداه قـــد اســـتيقظ بعـــد؛ فـــانتظراه لكـــن انتظارهمـــا طـــال أكثـــر مـــن المعتـــاد؛ فقامـــا إلـــى غرفتـــه ليجـــداه لا يصـــدر أصـــواتاً أو حركـــة علـــى الإطـــلاق؛ فـــاقترب عزيـــز منـــه أكثـــر واكتشـــف أن أنفاسه قد توقفت!

جلـــس علـــى الأرض يبكـــي مصـــدوماً، وفهمـــت هبـــة الأمـــر فشـــرعت فـــي البكـــاء هـــي الأخـــرى، واقتربـــت مـــن عزيـــز وجلســـت بجانبـــه، وفـــي استســـلام غيـــر متوقـــع أرخـــت رأســـها علـــى كتفـــه ولكنـــه لـــم يـــرى أن الوقـــت مناســـب للتعجـــب أو الاســـتنكار؛ فأحاطهـــا

بذراعـــه وقربهـــا منـــه، وازدادت دموعـــه قـــائلاً:

لماذا حقاً ينتهي كل شيء؟!

قالت هبة من بين دموعها:

-أتعلم؟ إنني أحسده!

-والآن أنا حقاً مثلكِ !

-كـــان مـــن الســـذاجة أن نظـــن بـــأن هـــذه الســـعادة البسيطة ستستمر بأية حال !

-لا...لقـــد اســـتمتعنا بمـــا كـــان ينبغـــي أن نســـتمتع بـــه مـــن اللحظـــات، وقـــد كـــان هـــذا كافيـــاً لـــبعض الوقـــت، لكن نهايته أتت ليس إلا، وعلينا أن نتقبل ذلك!

-تقبلـــه أنـــت الآن يـــا عزيز...إنـــي أشـــعر أن الـــدنيا تتهاوى من تحتي!

-إننـــي حقـــاً حـــزين يـــا هبـــة وأعلـــم أنـــكِ كـــذلك، لكنـــي أريـــدكِ فقـــط أن تهـــدئي مـــن روعـــك قلـــيلاً قـــدر إمكانكِ لئلا يصيبك مكروه من فرط الحزن!

-أتخشى علي؟!

-بالطبع أفعل، من بجانبي سواكِ الآن؟!

-ومن بجانبي أنا الأخرى سواك؟!

ظهر شبح ابتسامة على وجه عزيز، وأخذ يربت على كتفها لبرهة من الزمن كانت دموعهما خلالها لم تجف بعد، وسادها صمت قطعه فجأة بقوله:

-لا مكان لنا في هذا المنزل بعد الآن يا هبة....سنعود إلى الشوارع!

ردت من بين دموعها:

-أعلم ذلك....كانت الشوارع وستظل هي منزلنا الوحيد!

-سنترك المكان والجيتار كذلك، أعلم أنه أخبرنا أنه لنا كما هو له ولكن...لا أشعر فقط بأن الأمر سيكون صحيحاً إن...فعلناها....سنتجول لبعض

الوقـــت فـــي الشـــوارع...وفي نهايـــة الأمـــر ســـنعود إلى هنا، لن نتسول!

-ولكن كيف سنأكل؟!

-هذه الدنيا ليست مكاننا يا هبة، ليس بعد الآن!

تبـــادلا النظـــرات لبضـــع ثـــوان، ثـــم ابتســـمت هبـــة مـــن بين دموعها قائلة:

-ربمـــا كـــان ينبغـــي لـــذلك فعـــلاً أن يحـــدث منـــذ البداية!

رد عزيز بابتسامة مماثلة:

- نعم، ربما عندئذ فقط نحيا كما ينبغي أن نحيا!

****

(7)

كـــان كـــل شـــيء يميـــل للغـــروب وليســـت الشـــمس وحـــدها، هـــذا حينمـــا قـــرر بطلانـــا أن يخرجـــا ويأخـــذا جولـــة فـــي المدينـــة لـــيس هـــدفها حقـــاً أي نـــوع مـــن التســـول، ســـارا فـــي الشـــوارع ينظـــران إلـــى كـــل مـــا حولهمـــا، والجديـــد تلـــك المـــرة أن يـــديهما كانتـــا متشابكتين!

اللغنـــة علـــى الألـــم والجـــوع اللـــذين لا يميـــزان حبـــاً أو بـــراءةً فـــي الـــدنيا، إن وجودهمـــا الآن بجانـــب بعضـــهما جعلهمـــا شـــبه مســـتعدين لمواجهـــة المـــوت نفســـه، وقـــد حـــدثا نفســـيهما بـــأن هـــذا حقـــاً مـــا كانـــا يتوقـــان إليـــه منـــذ البدايـــة، ومنـــذ وقـــت طويـــل جداً !

لـــم يعـــد عزيـــز يأبـــه لشـــكوى معدتـــه الجائعـــة، ولا لألـــم قدميـــه مـــن المســـير، لكنـــه الآن يأبـــه لهبـــة وحسب، وكذلك هي لا تأبه الآن إلا له!

نظـــر إليهـــا فجـــأة خـــلال ســـيرهما، وظـــل يحـــدق ببصـــره ووجدانـــه فـــي وجههـــا، وشـــعر أن فـــؤاده قـــد ذاب فـــي عينيهـــا، وأن ســـحراً مـــا يصـــدر عنهـــا يجعـــل روحـــه تـــود أن تقفـــز خارجـــه لتلـــتحم بروحهـــا، ولوهلـــة مـــن الـــزمن شـــعر بأنهـــا تبادلـــه نفـــس الإحســـاس ولـــم يكـــن شـــعوراً كاذبـــاً؛ فقـــد وصـــل كلاهمـــا حينئـــذٍ إلـــى لحظـــةٍ وَدَّا فيهـــا لـــو أن بإمكانهمـــا نـــزع روحيهمـــا بأيـــديهما ومزجهمـــا معـــاً ليجعلاهمـــا كائنـــاً واحـــداً معنويـــاً يكســـر حـــدود الزمـــان والمكـــان، ويطـــوف الكـــون كلـــه ويتيـــه فـــي الفضـــاء والســـماوات...كانت لحظـــة لا تقـــدر علـــى وصـــفها - ولـــو اتحـــدت - كـــل الأوصـــاف والأدبيـــات !

مَـــرَّا بعـــد قليـــل بمتجـــرٍ للثيـــاب، فجلســـا علـــى مقعـــد

فـــارغ مقابـــل لـــه، وأخـــذا يســـترقان النظـــرات مـــن بعيـــد بَاسِـــمَين، إلـــى أن قـــال عزيـــز وهـــو يشـــير بيـــده إلـــى ثـــوب نســـائي مـــن المخمـــل الأزرق: فـــي زمـــان ومكـــان غيـــر هـــذين، أعلـــم أنـــكِ كنـــتِ ســـتبدين رائعـــة في هذا الثوب!

ابتسمت وهي تنظر له بدلالٍ قائلة:

-أحقاً تظن ذلك؟!

-كلا...إنـــي متأكـــد منـــه! جمالـــكِ لـــيس كـــأي جمـــال رأيتـــه ســـابقاً؛ فهـــو جمـــال يجمـــع بـــين البـــراءة والأنوثة....المهم أنني متأكد!

احمـــرت وجنتاهـــا خجـــلاً وألقـــت برأســـها علـــى كتفـــه، ثـــم أعـــادت النظـــر إلـــى زاويـــة علويـــة مـــن المتجـــر لـــتلحظ بعـــض الثيـــاب المخصصـــة للرجـــال، فأشارت إلى معطف أسود من الجوخ قائلة:

-وفي زمان ومكان غير هذين، أعلم أنك كنت ستبدو رائعاً في هذا الثوب!

-حقاً؟!

-أجل؛ فإنني أحب قسمات وجهك الوسيمة تلك، وأحب أيضاً حكمتك وهدوئك، وأنك لا تعبأ كثيراً بالألم بل تبتسم في وجهه، إنني أشعر أنك تحتاج ثوباً كهذا يجسد قوتك وهيبتك، و....المهم أنني متأكدة!

ابتسم عزيز ابتسامة عريضة كشفت عن أسنانه، وجلسا لبعض الوقت يتأملان المتجر دون حديث؛ إذ أن فؤاديهما كانا ينطقان بأكثر مما يمكن للكلمات أن تدل عليه!

****

(8)

مـــرت بضـــعة أيـــام قبـــل أن يحـــين موعـــد جولـــة أخـــرى لبطلينـــا فـــي شـــوارع المدينـــة، كانـــا فيهـــا ينظـــران إلـــى تلـــك الشـــوارع ويتـــأملان تفاصـــيلها بنظـــرات أقـــرب إلـــى الـــوداع، وخـــلال تلـــك الجولـــة وجـــدا فتـــاة صـــغيرة تلهـــو بـــالقرب مـــن متجـــر حلـــوى؛ فابتســـمت هبـــة وقالـــت لعزيـــز أن ينتظرهـــا هنـــا إلـــى أن تتحـــدث معهـــا قلـــيلاً وتعـــود؛ ســـألها عزيـــز مـــا إذا كانـــت تعرفهـــا لكنهـــا لـــم تـــرد وأســـرعت نحوها!

اقتربـــت هبـــة مـــن الصـــغيرة بحـــب ســـائلةً إياهـــا عـــن اسمها؛ فنظرت إليها الفتاة بشفقة وقالت لها:

-اســـمي براءة...تبـــدين جميلـــة جـــداً يـــا ســـيدة، لكـــن لماذا ملابسك بالية هكذا؟!

تجاهلت هبة قسوة السؤال إذ أنه صادر من فتاة صغيرة لا تعني بالتأكيد ما تقول وإنما تسأل ببراءة، وردت:

-ليس لدي مال كافٍ لأشتري ثياباً أفضل حالياً، ولكن يوماً ما سأجد طريقة لأرتدي ثياباً جديدة وأجمل من هذه، المهم الآن أنكِ أثرتِ انتباهي أنا و...حبيبي الواقف هناك بينما كنا نسير، ووجدتكِ جميلة جداً و...أنا حقاً أحب الأطفال يا براءة!

-هل هذا الرجل هناك هو حبيبك؟ يبدو أنه هو الآخر لا يملك مالاً ليشتري ثياباً أفضل! أنا حقاً أشعر بالحزن لأنكما لا تملكان مالاً لشراء ثياب جديدة!

-حقاً؟! لأنني لا آبه أصلاً، ولا أحتاج المال أو الملابس!

-كيف ذلك؟ من المفترض أن يكون مظهرنا دائماً أنيقاً وجذاباً، وأن يكون معنا مال كثير لنحيا ونشتري ما نريد، هكذا تقول أمي!

-ولا أستطيع أن أقول أنها مخطئة بالطبع، ولكن ماذا عما بداخلنا؟ هل مظهره جيد أيضاً أم أن ملابسنا فقط هي الجميلة؟!

-وما الذي بداخلنا؟

وضعت هبة يدها على صدر براءة قائلة: قلبكِ يا صغيرتي، وروحكِ!

ابتسمت براءة قائلةً: حديثكِ ممتعٌ جداً يا سيدة...ما اسمكِ؟

-اسمي هبة.

-أود أن يكون مظهر قلبي جيداً يا سيدة هبة !

-لماذا يا ترى؟ لتستعرضيه أمام الناس أم للجمال في حد ذاته؟

-ممم...ما الذي ينبغي أن أختاره؟!

-الجمال في حد ذاته بالطبع! لا ينبغي أن يعني الناس لكِ شيئاً بقدر ما ينبغي أن تعني نفسكِ لكِ شيئاً أولاً!

-إن حديثكِ حقاً رائع يا سيدة هبة ويجعلني أشعر أنني فتاة كبيرة !

-وأنتِ بالفعل كذلك، وستكبرين يا حبيبتي وربما تتذكرين كلامي !

-لن أنساه أبداً، أعدكِ، وسأبلغه لأمي!

-إذن، لِمَ أنتِ واقفة هنا؟

-أنتظر أمي؛ فهي بالداخل تشتري بعض الحلوى وستخرج قريباً، سأخبرها أنكِ تحتاجين بعض المال فنحن أغنياء وننفق أموالنا في أشياء كثيرة...

-كلا...كلا يا عزيزتي؛ أنا حقاً لا أريد المال على الإطلاق إنما أتيتُ إليكِ لأحدثكِ فقط !

-إذن فأنتِ حقاً لا تحتاجينه !

قطع حديثهما خروج والدة براءة من المتجر، والتي شهقت فور رؤيتها المتجر وأسرعت نحوهما لتجذب براءة من ذراعها وهي تصرخ في هبة:

- أبعدي يديكِ الملوثتين عنها!

ثم وجهت حديثها إلى براءة قائلة:

- إنها تتملقكِ للحصول على المال، يا لكِ من صغيرة ساذجة!

ردت براءة : كلا يا أمي، لقد قالت أنها لا تحتاج المال أصلاً!

لم ترد الأم، وإنما سارت مبتعدةً مع براءة التي نظرت إلى هبة مودعة إياها ومعتذرة لها بصوت مسموع:

-وداعاً...أنا آسفة!

لوحت لها هبة مودعة إياها وقد اغرورقت عيناها بالدموع وهي تراقبهما يبتعدان إلى أن دخلا شارعاً جانبياً ليختفيا عن الأنظار، وهنا اقترب عزيز الذي كان يراقب الموقف من مسافة قريبة وقال:

-كنت أود أن أمنعكِ من هذا لكنني ظننتكِ تعرفينها، والآن يبدو أنكِ لا تفعلين بعد ما رأيته يحدث! لا تبكِ يا هبة...هذا حال المدينة وهذا نحن بالنسبة لهم؛ مجرد قاذورات!

قالت هبة من بين دموعها:

-اللعنة على المدينة وعلى الناس وعَلَيَّ، أنا لا آبه! أخبرني فقط ما ذنب الصغيرة؟!

-ليســـت مذنبـــة...حالياً هـــي بريئـــة، لكـــن فـــي المســـتقبل وبمجـــرد أن تحصـــل علـــى حريتهـــا، مـــن يعلم؟!

-لماذا كل هذا يا عزيز؟! لماذا حقاً كل هذا؟!

-اهـــدئي يـــا هبـــة...لا تنســـي بأننـــا نخطـــو خطواتنـــا نحو نهاية كل هذا، لقد اقتربنا يا عزيزتي!

احتضـــنها عزيـــز بقـــوة، وأخـــذ يربـــت علـــى ظهرهـــا قائلاً:

-لقد اقتربنا يا هبة....لقد اقتربنا!

****

(9)

مـــرت الأيـــام تليهـــا الأســـابيع، وقـــد بـــدأ الهـــزل والضـــعف يبـــدو علـــى جســـدي عزيـــز وهبـــة إذ أنهمـــا حرمـــا نفســـيهما مـــن الطعـــام تقريبـــاً لمـــا يزيـــد عـــن نصف الشهر!

وذات يـــوم لـــم يخرجـــا فيـــه مـــن منـــزل وحيـــد، أحـــاط عزيز هبةً بذراعه وسألها:

- تشعرين بالجوع، أليس كذلك؟

ردت: أجل، وأشعر أيضاً بأن هذا لم يعد يهمني!

-رائع، وهو المراد!

-إننـــي الآن أشـــعر بـــأنني أتـــألم كمـــا لـــم أتـــألم قـــبلاً فـــي حياتي كلها!

-وهـــو المـــراد أيضـــاً! أنـــا مثلـــكِ قـــد وصـــلت إلـــى أقصـــى مرحلـــةٍ مـــن الألـــم؛ بطنـــي تصـــرخ مـــن أجـــل

الطعـــام، وروحـــي تصـــرخ مـــن الـــدنيا، وعقلـــي يصـــرخ مـــن الخـــوف، ورغـــم ذلك...فأنـــا الآن أشـــعر بشكل ما....أنني أولد من جديد !

-وأنا كذلك يا عزيز!

-هـــذا الألم...ربمـــا يكـــون أفضـــل مـــا شـــعرت بـــه فـــي حيـــاتي، إننـــي الآن أشـــعر أن روحـــي تســـمو، وأننـــي وجـــدت ســـلاماً رائعـــاً بـــداخلي، وأن كـــل شـــيء فـــي هـــذه الحيـــاة حقـــاً لا قيمـــة لـــه علـــى الإطـــلاق، إننـــي أرى الآن نـــوراً يحـــيط بكـــل شـــيء أمـــامي، وأول مـــا أراه يحاط بهذا النور هو ألمي !

-وأنا كذلك نوعاً ما يا عزيز!

-أهـم وأعـذب مـا حـدث لـي فـي هـذه الحيـاة يـا هبـة أنني أحببتكِ!

-وأنا كذلك يا عزيز؛ إنني أشعر حقاً بأن هذه اللحظات التي قضيتها معك هي جوهر حياتي البائسة كلها!

-إن الحب حقاً لشيء رائع يا هبة، وإنني أرجو للصالحين من أهل المدينة أن يتمتعوا بتجربته؛ فأنا الآن لا أرى في الحياة ما هو أهم منه، أو منكِ!

-وأنا أيضاً يا عزيزي!

صمتا لبضع ثوان، ثم قال عزيز ببعض الفضول والأسف:

-سنموت دون أن نعرف حكايات بعضنا!

قامت هبة وتوجهت نحو الجيتار، وجلست بجانبه لتعزف لحناً في قمة الأسى، ثم علقت بعد انتهائها عليه قائلة:

- هذه الألحان يا عزيز هي حكايتي!

ثم ناولته الجيتار قائلةً:

-لم لا تقص علي حكايتك أيضاً؟!

ابتسم عزيز، وأخذ منها الجيتار ليعزف لحناً لا يقل قسوة وأسى عن لحن هبة، ثم علق بعد انتهائه قائلاً:

-هذه الألحان يا هبة هي حكايتي!

ثم قام ليعيده مكانه، وعاد ليجلس ويحيطها بذراعه، وهذه المرة ألقت هبة برأسها على صدره، وقالت:

-المهم في كل هذا أننا جربنا الحب، وأننا سنموت عليه!

-كنت أود حقاً أن أحبكِ في ظروف أفضل من تلك يا هبة!

-وأنا كذلك يا عزيز، صدقني!

-أصـــدقك يـــا محبـــوبتي، أملنـــا الوحيـــد الآن أن نجتمـــع بعـــد المـــوت؛ علنـــا نحيـــا بعـــده فـــي زمـــان ومكـــان آخـــرين أتمتـــع فيهمـــا برؤيتـــكِ بـــالثوب الأزرق!

ابتسمت هبة كاشفة عن أسنانها وقالت:

-وأنـــا أيضـــاً أشـــاركك أمنيتـــك؛ عَلِّـــي أراك بـــالمعطف في زمان ومكان آخرين!

ابتسم عزيز بدوره وضمها أكثر، وقال:

-هـــذا الحـــب حقـــاً يســـتحق أن نمـــوت لأجلـــه! إننـــي لا أســـتطيع أن أصـــف عذوبتـــه يـــا هبـــة، وأشـــعر بالضـــيق أننـــي لا أقـــدر حقـــاً علـــى الإفصـــاح بكـــل مـــا يحمله قلبي لكِ في هذه اللحظات من المشاعر!

-وأنـــا مثلـــك يـــا عزيـــزي، لكـــن لـــيس عليـــك أن تهـــتم أو تشـــعر بالضـــيق؛ فأنـــا أعلـــم أننـــا فـــي زمـــان ومكـــان آخـــرين ســـنكون قـــادرين علـــى البـــوح بكـــل

مـــا نرغـــب فـــي البـــوح بـــه، وأن العصـــافير ســـتحيطنا مغردةً أينما نكون معاً!

-آمـــل حقـــاً أن نســـتيقظ فـــي زمـــان ومكـــان أفضـــل مـــن هذين، هذه هي أمنيتي الأخيرة!

-وأمنيتي أنا الأخرى!

-أحبكِ جداً يا هبة !

-وأنـــا أحبـــك بدرجـــة لا أســـتطيع وصـــفها بالكلمـــات يا عزيز!

-وإذن، أراكِ في الناحية الأخرى!

-إلى لقاء قريب يا محبوبي!

وســـاد بينهمـــا الصـــمت، ومـــرت الثـــواني تليهـــا الـــدقائق تليهـــا الســـاعات حيـــث أصـــبح نـــبض قلبيهمـــا أبطـــأ، وقـــد استســـلما للجـــوع والألـــم، والحب...

والموت.

صفوة الفقراء

بينما تغمر الظلمات إنسانية مجتمع "المدينة" البراق،
يجد نورٌ من نوعٍ آخر طريقه إلى قلبَي عاشقين من الصفوة، وهنا
لا نتحدث عن صفوة الأثرياء أو النبلاء، أو مواطني الطبقة
المتوسطة،
إنما نتحدث عن صفوةٍ لا يتحدث عنها كثيرون - وربما حتى قليلون
- ألا وهي: صفوة الفقراء!

عن الحب الميتافيزيقي، ومحددات قيمة الوجود البشري،
والتطلع إلى النهاية، والتحرر من الراحة بالألم...!

وعن إجابة سؤال غريبٍ هام: هل الحب يليق بالفقراء؟!

محمد تامر

أحبة الضاد

تصميم غلاف كوكي أنور